(الرسول الحي)

{ لكل أمّة رسول ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة }
الأمّة ترجع إلى أربعة معاني كما في مقاييس اللغة، الأصل والمرجع والجماعة والدين. فأيهما المقصود في هذه الآية {لكل أمة رسول}؟ قبل ذلك ما العامل المشترك بين المعاني الأربعة؟ هذا تفسير جامع: لكل جماعة أصل هو الذي يجمعها ومرجع مشترك ترجع إليه ودين واحد يوحّد بينها ، فيكون الأصل من الماضي وغالباً يتعلّق بالنسب كأن يكونوا من والدة واحدة أو واحد واحد كالقبيلة والأسرة أو يكون مضى بينهم حلف قديم جمعهم فهو نسب إرادة لا نسب دم، فالأصل إما دم بالخلقة الطبيعية وإما إرادة وحّدت بينهم وهو توحيد أصله النفس لا الجسم، وكلاهما أصل جامع. ويكون المرجع هو شيء حاضر يرجعون إليه في حياتهم الاجتماعية السياسية كشيخ يحتكمون إليه أو قيم يحفظونها أو كتاب ودستور يحتكمون إليه فهو مرجعهم في تحديد ما هو الحق وما هو الصواب في الأمور ومن ذلك قولهم "ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلا اختلاق" و "ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين" ونحو ذلك مما يدل على وجود مرجعية فكرية وأخلاقية مشتركة محفوظة عندهم وبالقياس عليها يُعرَف الخارج على الجماعة. ويكون الدين هو العامل المشترك الذي له طابع سماوي وغيبي وإلهي

وماوراء الطبيعية عموماً. فالأصل من الماضي الطبيعي والسياسي، والمرجع من الحاضر الشفهي والكتابي، والدين من الغيبي الماورائي الإلهي، وعلى هذه الأسس الثلاثة تتكوّن الجماعة. بناء على ذلك، توجد وحدة بين المعاني الأربعة المتعلقة بمفردة "أم" ومشتقاتها وفروعها. وبالنظر في تاريخ الجماعات البشرية وحاضرها نجد مصداق هذا التفسير إذ لكل جماعة فعلاً أصل ومرجع ودين، مهما اختلفت التفاصيل إلا أنه لابد من هذه الثلاثة في تكوين الجماعة. وعلى ذلك يكون المحور في معنى الأمّة هو الجماعة، والمعاني الثلاثة الأخرى- الأصل والمرجع والدين-متعلّقة بالمحور كتفاصيل وقواعد تسنده وتوضح حيثياته وشؤونه. فالأصل في كلمة أمّة إذن هو الجماعة، وفي سياق الآية هي جماعة الناس تحديداً وليس أي جماعة إذ قد تكون الدواب أيضاً أمم كما في قوله "ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم". ويعزز ما ذكرناه قوله تعالى في قصة موسى حين ورد ماء مدين "وجد عليه أمّة من الناس يسقون". فالأمّة من الناس تذكر دائماً كجماعة لها شيء مشترك يجمعها، حتى لو كان فعلاً بسيطاً مؤقتاً مثل السقي "أمة من الناس يسقون" إذ لم يكونوا يسقون طول حياتهم في كل وقت بل حين يحتاجون إلى السقي وهذا بدهي. فالناس أمم "كلما دخلت أمة لعنت أختها" "إن هذه

أمتكم أمة واحدة" "لو شاء ربكم لجعل الناس أمة واحدة" أي لم يشأ بالتالي الناس أمم متعددة. حسناً، نرجع الآن إلى الآية.

{لكل أمّة رسول} ما الأمّة هنا؟ هي جماعة من الناس. {فإذا جاء أجلهم} إذن لكل أمّة أجل كما نصّ عليه في آية أخرى "لكل أمة أجل". فكل أمّة محدودة بزمان، إذا جاء هذا الزمان فنوا وزالوا. فالرسول لابد أن يكون حياً مع حياة الأمة ولا يكون قبلها ولا بعدها، وإلا لم يصدق {لكل أمّة رسول}. فإذا جاء أجل الأمّة لم يعد لرسولها عمل معها، وجاءت أمّة أخرى ذات أجل جديد والأمة الجديدة بحاجة إلى رسول جديد مصداقاً لكلّية {لكل أمة رسول}.

إمّا أن يقال أن الناس كلّهم من زمن محمد إلى يوم القيامة هم أمّة واحدة بالتالي يكون {لكل أمة رسول} منطبقاً على كل الناس إلى يوم القيامة. وهذا مشكل لأن تواجد الرسول مبعوثاً وسط أمّته حاضراً يبلّغها ويأمرها وينهاها "يا أيها الرسول بلّغ" و "أطيعوا الرسول" و "إن الذين يبايعونك" كل أعمال الرسالة هذه لابد أن يقوم بها الرسول نفسه أو يكون الرسول حاضراً بحيث يمكن الرجوع إليه والتأكد من كون رسول الرسول هو رسوله فعلاً، وعلى الوجهين لابد من حضور الرسول في الأرض وإلا لم يعد رسولاً لكل الناس مطلقاً كما هو الفرض هنا. وإذا نظرنا في حال المسلمين مثلاً سنجد أن الأصل الأكبر

لاختلافهم الشديد هو تحديداً عدم وجود الرسول بيننا في الأرض. وفئة قليلة من المسلمين تقول بحياة الرسول في الملكوت والعالَم الغيبي بنحو يمكن التواصل معه فيه وأخذ الكتب والأوامر وحتى تصحيح الأحاديث عليه يقظة أو مناماً، لكن لا يخفى أن هذه الفئة القليلة وإن كان الرسول رسولاً بالنسبة لها لكن هي نفسها إما تكتم مثل هذه الأحوال بحجّة إخفاء الكرامات أو غير ذلك، وإما لا تأخذ به في الشرعيات والعقائد كأصول مطلقة على اعتبار أن النصوص التي بأيدينا وعقولنا والإسناد في الأخذ يكفي عنها، وإما وهو الغالب يشكك عموم المسلمين بصدقها أو حتى لو سلّموا لهم حالهم فإنهم لا يبنون عليه عادة الشيء الكثير بل ولا الشيء القليل ولا يمكن لعموم المسلمين-لا أقل حسب الشائع-الرجوع إلى الرسول وهو قائم في عالم الغيب للتأكد إن كان فلان فعلاً قد أخذ منه كتاب فصوص الحكم أو صحح عليه الأحاديث الكذائية أو سار أمام الجيش لفتح مصر أو غير ذلك من أمور كلها تحاول صبغ علمها وعملها بصبغة رسولية ومصادقة النبي عليها، فحتى لو سلّمنا بهذا كلّه فإنه لا يكفي لإتمام عمل الرسول في الأمّة إن كانت الأمّة هي البشرية مطلقاً عربها وعجمها قديمها وحديثها إلى يوم الدين. وانظر كم مسألة مشكلة وعقيدة مختلف عليها حلّها المسلمون بالقول "لقد رجعنا إلى الرسول بالأمس وقال لنا كذا" كما كان يفعل الصحابة مثلاً حسب الروايات

التاريخية. فإن قيل بأن الرسول ترك كتاباً وأشخاصاً يقومون مقامه وهم بمثابة الرسل له، فهذا أيضاً هروب من أصل المسألة وهي {لكل أمة رسول} ولم تقل: لكل أمة رسول رسول، ورسول رسول رسول، وهكذا. وكلنا نعلم مدى الاختلاف الذي وقع ولا يزال واقعاً في قراءات وتفاسير هذا الكتاب، وتعيين هؤلاء الأشخاص، ورجعنا إلى أصل المشكلة وهي أننا لا نستطيع بنحو عام الرجوع إلى الرسول ليفصل لنا في هذه القضية كما كنا سنفعل لو كان الرسول قائم الآن في المدينة المنورة، فلو كان الرسول اليوم في المدينة كنّا سنرسل له مرسولاً أو رسالة مختومة فيها مثلاً "هل القياس حجّة في الشريعة أم لا ؟" وسيأتي الجواب، "هل الإجهاض حلال أم حرام؟" وسيأتي الجواب، "كيف نختار رئيس جماعتنا وما نظام الحكم الشرعي؟" وسيأتي الجواب على طريقة "يسألونك..قل" أو على طريقة "سألنا رسول الله كذا..فقال كذا". ثم لا يخفى أن نص ترك الكتاب والعترة أو الكتاب والسنة أو الكتاب والصحابة وغير ذلك هو بحد ذاته نص مروي وليس شيئاً أخذناه عن الرسول مباشرة، ثم حتى لو سلّمنا بالمعنى في الماضي فماذا عن الحاضر؟فلنفرض أننا سلّمنا بكل ما يقوله الشيعي الإمامي الاثنا عشري فإننا سننتهي معه إلى الاختلاف في المراجع القائمين اليوم وطرقهم المختلفة في التفقه والاعتقاد وهم في اختلافهم كغيرهم ممن لا يسلّم لهم بتلك الدعاوى. وهكذا لن

يخلو مذهب أو فرقة من مثل ذلك، وكلهم لن يطبّق معنى {لكل أمة رسول} بالمعنى اللغوي العربي الفصيح الظاهر منها فإنها جملة بسيطة جداً ولن يختلف أحد من هؤلاء ولا غيرهم أن معناها في زمن الرسول هو {رسول} إنسان وليس دفتراً ولا خيالاً ولا كائناً ملكوتياً وإلا لما احتاجت أي أمة لاحقة إلى رسول جديد بل لقيل لها ارجعي إلى الرسول الماضي القائمة روحه في الملكوت. وهذا كلّه على فرض أننا نتكلّم فقط داخل دائرة المسلمين، فإذا خرجنا عن هذه الدائرة وخاطبنا بقية الناس عرباً وعجماً فالأمر أعسر، لأننا سنعرض إسلامنا نحن على الغريب والأجنبي وبإمكانه أن يردّ علينا ببساطة "هذا إسلامك أنت لكن يوجد إسلامات أخرى فما أدراني أن إسلامك أنت هو الذي يعبّر عن رسالة الرسول الذي هو رسول أمّتنا هذه إلى يوم القيامة؟ (على فرض تسليمه بذلك)؟" وحينها إما أن نقول له بالتسليم الأعمى وإن كان سيسلّم على العمياني فليسلّم عمياناً بأي شيء وبهوى نفسه أيضاً ولا مرجّح لديننا على دينه حينها، وإما نقول له تعال وادخل واغرق في مجادلات المذاهب اللانهائية ولن يخرج من هذا بأحسن مما خرج ويخرج به مشايخ المسلمين بالأمس واليوم، وإما أن نقوم له بكرامة تشبه المعجزة فنفلق له بحراً وهذا أقلّ ما يقال فيه أنه صعب تعميمه، وإما أن نتحدّاه بأن يأتي بمثل هذا القرءآن وأقل ما سيرد علينا به هو أنه لا يتكلّم إلا اللغة السنسكريتية مع الأسف،

وإما أن نخبره بعجز العرب في الماضي وسيرد علينا بأنه لا يدري ما نقول وبأنه لا يعتمد على فعل الغير ويريد رؤية الآية بنفسه ليطمئن قلبه (!). وهكذا كلها محاولات للالتفاف على العبارة القرآنية القوية والصريحة والمعقولة بنفسها وهي {لكل أمة رسول}. بل وزيادة على ذلك أن كل مراجع المسلمين اليوم لا أعلم أحد منهم في العلن على الأقل يعلن أنه رسول الله أو حتى رسول رسول الله بنحو صريح ومباشر وقاطع وأنه رسول هذه الأمة أو لا أقل أحد رسل هذه الأمّة لأن {لكل أمة رسول} لا يلزم بالضرورة عنها رسول واحد بل قد يكون أكثر من رسول مثل قوله في يس "أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون" وفي ضيف إبراهيم "ما خطبكم أيها المرسلون"، أي جنس {رسول} هو المطلوب، وليس عدد الرسل ودرجاتهم.

وبالعودة إلى المعاني الأربعة لكلمة أمّة سنجد سبباً آخر لوجوب كون الرسول إنسان حي في زمن الأمّة نفسها. فالرسول يصبح هو مركز الجماعة الجديدة، وطاعة إرادته وقبول تعليمه هو الأصل الجامع بين أفرادها، والتحاكم إليه هو المرجع الذي يضمن حفظ نظام الجماعة، وكون الرسول حاصل على الإذن الإلهي الحي بالتشريع والتعليم الديني ولديه النور الحي والروح الحية التي يبثّها في جماعته هي الدين الحق الحي الذي يقيم الجانب الغيبي للجماعة. فالرسول هو الأمّة من حيث كونه الجامع لمعاني الأمّة–ومن معاني الأم هو الجامع، وهو

الفرد الذي تتجسّد فيه كمالات الأمّة ولذلك "إن إبراهيم كان أمّة". فالرسول هو الأمّة الذي يلد أمّة، ومن معاني الأمة هي الوالدة والأب الجامع لخصال الخير، وكلاهما حاصل هنا، ومن هنا نجد في المرويات نسبة معنى الوالدية والأبوية لمحمد بالنسبة لأمته. كل هذا تام ومقبول ومعقول. فبدون الرسول الحي لا جماعة إلهية حية. وأما حال المسلمين فهم في أحسن الأحوال كالسامري الذي يقبض قبضة من أثر الرسول أو حتى ما زعم البعض أنه أثر الرسول، وعلى هذا الأساس يريد إقامة تمثال ومثال أعلى ودين وإمامة يقصدها الناس ويعكفون عليها، فالمسلمون اليوم يعبدون عجلاً صنعه سامري مذهبهم وفرقتهم ولا يتبعون موسى وهارون الخليفة الحي لموسى بينهم. وإن كان هذا حال المسلمين فقل ما شئت بعد ذلك في غيرهم.

الحاصل: {لكل أمة رسول} تدل على وجود رسول أي إنسان حي لكل أمّة أي لكل جيل من الأجيال أو طائفة من الناس أو جماعة منهم، وحين تموت هذه الجماعة والجيل والطائفة والفرقة من الناس وينتهي أجلها في الدنيا تكون انتهت الصلاحية الحقيقية بأضيق المعاني وألزمها شرعاً لرسالة رسولها ويجب إرسال رسول جديد بحكم {لكل أمة رسول} حتى تكون جماعة الناس قائمة قيامة فعلية حقيقية حية لها أصل ومرجع ودين حق وحي وحيوي وفعال ومباشر، دون الحاجة للف والدوران والرجم بالغيب والخرص والتكهن والقياس الظني

والجدل العقيم والتخيل السقيم. باختصار، لابد من موسى أو هارون لكل بني إسرائيل وإلا فسيخرج سامري ويصنع عجلاً لبني إسرائيل لا يكلّمهم هم ولا يخاطبهم في شؤونهم الحية ولا يهديهم سبيلاً ولا طريقاً يناسبهم ويكون متنزلاً من الله إليهم من أجلهم.

...